



الدينامية القبلية بالمجال القروي بمنطقة الغرب:

جماعتي بير الطالب وزكوة نموذجاً

الموحي مديحة

مبتهاج ماجدة

جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية

الأستاذ المشرف: ذ صبروا فهد

أستاذ مؤهل بشعبة الجغرافيا

مختبر إعداد التراب جيو بيئة والتنمية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة ابن طفيل بالقنيطرة

المغرب

الملخص:

يتناول هذا المقال دراسة الدينامية القبلية بمنطقة الغرب من خلال حالة جماعتي بير الطالب وزكوة يهدف البحث إلى تحليل أشكال التنظيم الاجتماعي وآليات التحول والاستمرارية داخل البنيات القبلية. اعتمدت الدراسة على منهج تاريخي-سوسيولوجي، يجمع بين التحليل الوصفي والمعطيات الميدانية وتوصلت إلى أن المجال القروي يشهد تفاعلاً مستمراً بين البنيات التقليدية والتغيرات الحديثة ويبرز هذا العمل أهمية فهم الديناميات القبلية في تحليل التحولات الاجتماعية بالمغرب.



مقدمة

يشكل المجال القروي بالمغرب فضاءً غنياً بالدراسات السوسولوجية والتاريخية، لما يعرفه من تعاقب وتحول في البنيات الاجتماعية والتنظيمات التقليدية. وتعد الدينامية القبلية إحدى أبرز هذه البنيات التي ساهمت في تشكيل العلاقات الاجتماعية وتنظيم المجال عبر فترات تاريخية مختلفة. وفي هذا السياق، يهدف هذا المقال إلى دراسة الدينامية القبلية بالمجال القروي الغربي من خلال حالة جماعتي بير الطالب وزكوة، عبر تحليل أنماط التنظيم الاجتماعي، وآليات الاستمرارية والتغير داخل البنية القبلية. كما يسعى إلى فهم كيفية تفاعل هذه البنيات مع التحولات الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة، اعتماداً على مقارنة تاريخية-سوسولوجية.

الإطار التاريخي لسكانة جماعتي بير الطالب وزكوة

عرفت منطقة الغرب استيطاناً بشرياً منذ فترة طويلة من الزمن، رغم أن الإكراهات الطبيعية جعلت منها مجالا يعرف إفراغا من السكان. فحسب دراسات مختلفة تبين أن المنطقة حتى بداية القرن العشرين لم تعرف استقراراً بشرياً بسبب توالي الفيضانات، والصراعات القبلية التي عرفتها منطقة الغرب،¹ كما يظهر من المصادر التاريخية المتوفرة، أن منطقة الغرب كانت تعني مجالا جغرافيا واسعا يشمل المناطق الممتدة من طنجة شمالا إلى حدود ثغر سلا جنوبا، ومن المحيط الأطلسي إلى حدود مدينة فاس شرقا، غير أن المتتبع لمسار تطور كلمة الغرب وكذا كلمة أزغار، يلاحظ أنها أصبحت تعني مجالا يتقلص شيئا فشيئا مع توالي العصور والدول بالمغرب من جهة، ومن جهة أخرى أصبح إصطلاح الغرب لا يقصد به المجال الترابي دون غيره، بل المجتمع و المجموعات البشرية التي أصبحت تستقر فوق هذا المجال؛ إنطلاقا من القبائل الهلالية وقبائل بني معقل، ثم القبائل الصحراوية المستقدمة من حوز مراكش.²

قبل فترة الحماية الفرنسية، كانت التنظيمات الاجتماعية بالمغرب، تعتمد في تأطير ساكنتها وتديير مختلف شؤونها، على القبيلة التي كانت تمثل حجر الزاوية ضمن هياكل النظام المخزني. ولعل أبرز ما يستدعي تكتل أعضاء القبيلة وتوحدتهم؛ هو التوفر على أرض جماعية، إلى جانب ملكيتهم العائلية، لذا كانت حماية هذه الملكية الجماعية، والدفاع عنها ضد مهاجميها من مرتكزات الحياة القبلية، ما دام الحرص عليها لا يخص أفراد دون آخرين بقدر ما هو مسؤولية الجميع.³

استقرت بمنطقة الغرب بعض القبائل العربية، حيث مثلت قبيلتي رياح والخلط من القبائل الأولى المستقرة بالمنطقة، توالى بعدها قبائل سفيان وبنو مالك من بني هلال، ثم قبائل بني احسن و الشاردة من بني معقل، كما توجد إلى جانب هذه القبائل الكبرى بعض التجمعات والقبائل الصغيرة

قبائل رياح والخلط

كانت قبيلة رياح من أكبر القبائل الهلالية التي تم إستقدموا من إفريقيا جنوب الصحراء، حيث استقروا في إقليم الهبط بين القصر الكبير وبلاد أزغار وذلك ابتداء من 1188 م، حربت هذه القبائل إلى جانب الموحدين وضد المرينيين، وكانوا من أقوى القبائل طيلة العهد الموحدي. بالنسبة لقبائل الخلط فقد إستقروا في البداية على ضفاف واد سبو، لكن بسبب مزاحمة بعض القبائل لهم وحصول مجموعة من الحروب، رحل بعضهم إلى مراكش ونواحيها، وبعد مشاركتهم في معركة وادي المخازن، أعادهم المنصور الذهبي إلى منطقة الغرب، الأمر الذي نتج عنه حدوث معارك عدة مع قبائل كانت تستغل هذا المجال، وأفضى ذلك إلى استقرارهم بالقرب من العرائش بعد دخول الإستعمار الفرنسي. كما هو موضح بالخريطة رقم 8، نلاحظ إستقرارهم بمجماعات محاذية لإقليم العرائش كجماعة واد المخازن وجماعة عرابوة.

¹ Jean LE COZ (1964) Le Gharb fellahs et colons étude de géographie régionale 2 T Rabat. P 233.

² المصطفى البوعناني (2004) "ازغار والغرب: إشكالية التنمية وتحديد المجال"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 4، كلية الآداب بالقيظرة، ص: 133.

³ عبد الرحمان ابن خلدون 2004 مقدمة ابن خلدون ص 128، 129، 130.



قبائل بني سفيان

ينتمي بنو سفيان إلى قبائل بني هلال، التي قام السلطان الموحي بنفيهم من الجنوب التونسي، بسبب تحالفهم مع بني غانية النافرين على السلطة الموحدية⁴، ووطنهم بالمنطقة لأسباب أمنية. ويرجع سبب تسميتهم بسفيان لأنهم عند دخولهم إلى المغرب تفرقوا إلى خلط وسفيان وبني جابر، وعند دخول بني سفيان إلى المغرب الأقصى إستقروا بأطراف تامسنا، إلا جزءا منهم ظل يتنقل مع قبائل بين معقل بين السهول الأطلنتية والسهول الجنوبية بصحراء سوس بضواحي بلاد حاحا.⁵

مع وصول المرينيين إلى الحكم تمكن الخليفة يعقوب بن عبد الحق من قتل زعيمهم مسعود بن كانون بن جرمون في أبريل 1282، وتزوج بزوجته، فكانت بداية تهجير قبيلة سفيان على الغرب.

لم يتم نقل قبيلة بني سفيان إلى الغرب دفعة واحدة، بل إستمر تهجيرهم منذ أواخر القرن 13 م، إلى حدود النصف الثاني من القرن 16 م؛ خاصة في عهد الخليفة أحمد المنصور السعدي، الذي إستعملهم لخلق نوع من التوازنات بمنطقة الغرب. لقد كان مجال قبيلة سفيان شاسعا ويمتد إلى الضفة اليسرى لواد سبو، لكن الضغط الكبير الذي مارسته بنو احسن إنطلاقا من القرن 17 م أدى إلى تراجع قبائل سفيان إلى الضفة اليمنى لوادي سبو، وكما هو موضح بالخريطة رقم 8، يمكن التمييز بين قبيلة سفيان الشرق المستقرة بمناطق محادية لإقليم وزان، كجماعة عين الدفالي و جماعة جرف الملح، وبين قبيلة سفيان الغرب، المتواجدة بمنطقة الغرب، كجماعة مولاي بوسلهام، وسوق الثلاثاء الغرب .

قبائل بني مالك

ينتمي بنو مالك إلى قبيلة بني هلال، حيث تمكنوا من الدخول إلى المغرب الأقصى، عبر عدة دفعات، انطلاقا من أواسط القرن 17 هـ إلى أواسط القرن 8 هـ.

في البداية إستقروا في المغرب الشرقي، وتعايشوا مع قبيلة بني سفيان الأقوى منها، ولم يكن لها إسم متفق عليه، حيث ذكرت في مصادر القرن 16 م مقرونة مع قبيلة بني سفيان، ولم تسترجع إسمها إلا بعد ما فصلها السلطان مولاي عبد الله بن المولى إسماعيل عن قبيلة بنو سفيان، واستقروا بالضفة اليمنى لواد سبو، حيث يشغلون حيزا مجاليا واسعا، كما هو موضح بالخريطة رقم 8، يضم مجموعة من الجماعات كجماعة سيدي عامر الحاضي و جماعة سوق الأربعاء الغرب وجماعة سيدي عزوز وجماعة الخنيشات.

قبيلة بني أحسن

تنتمي قبيلة بني احسن إلى قبيلة بني معقل، الذين دخلوا المغرب واستقروا بحوض ملوية الأعلى ورمال تافيلالت، وذلك خلال القرن الثامن عشر، وبسبب ضغوطات قبائل كروان، إضطرت الحسناويون إلى التخلي عن سهل مكناس، واتجهوا إلى منطقة الغرب، باحثين عن أراضي جديدة تعوض ما يضيع لهم. بسبب ضغط قبائل زمور المستمر عليهم والذين بدورهم يتعرضون لضغوطات من خلفهم، وإكتسحوا معظم الأراضي الخاضعة لقبيلة سفيان وبني مالك، الذين أرغموا على عبور الواد والإكتفاء بالضفة اليمنى، عدا بعض الدواوير القليلة التي حافظت على مواقعها الأصلية، في حين بقيت بنو احسن خاضعة لضغط القبائل الزمور البربرية من الناحية الجنوبية؛ حيث استأنفوا نزوحهم نحو الشمال وأصبحوا يتنافسون مع قبائل بني احسن على إستغلال غابة المعمورة، إلى أن جاء المستعمر وقسم المجال بينهم.

⁴ مبارك الشيكرك 2000، المدن الصغرى والمتوسطة ودورها في الهيكلية المجالية، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ص23.

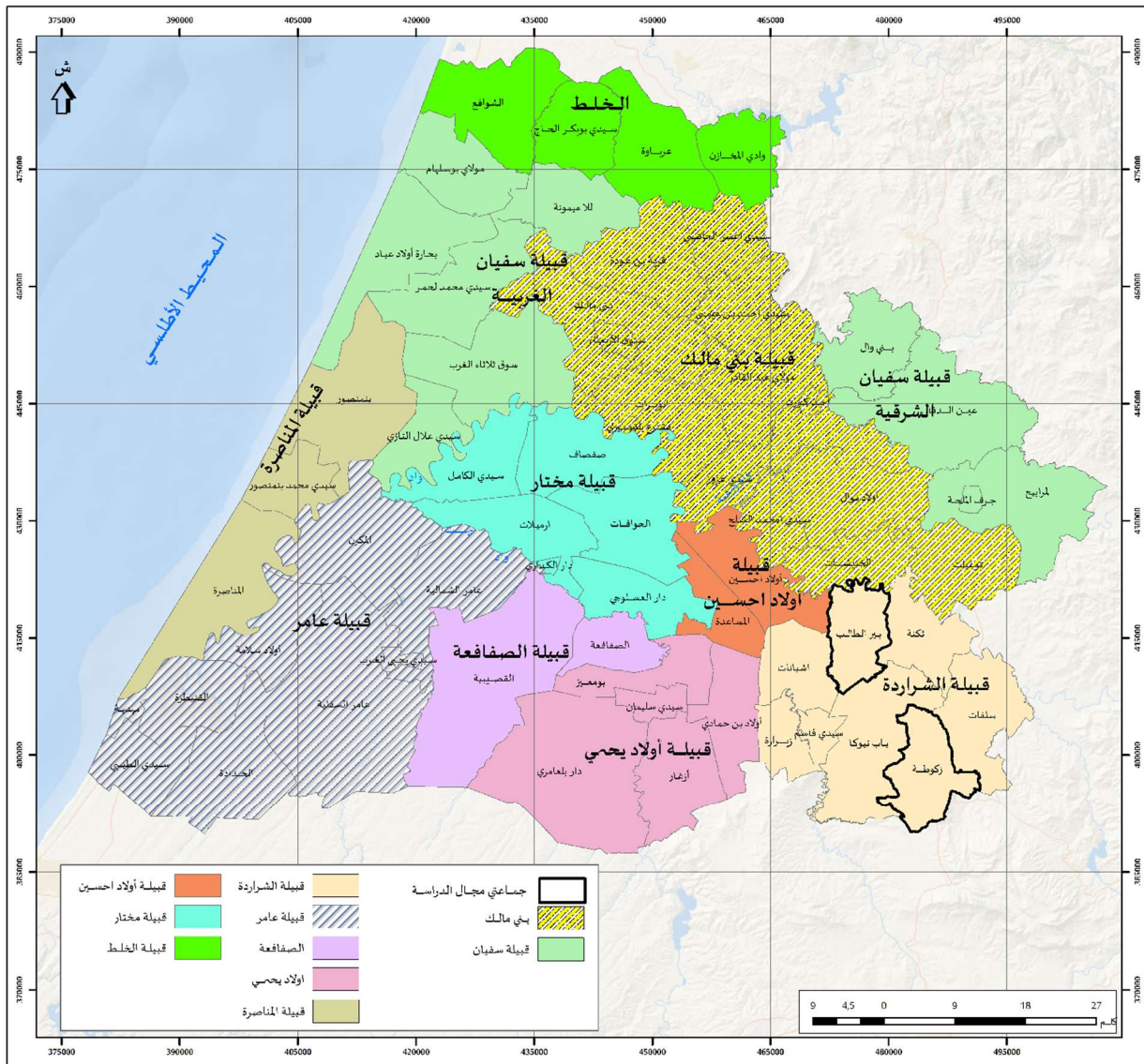
⁵ المصطفى البوعناني 2002، مساهمة في تاريخ منطقة الغرب من القرن 6هـ/12م إلى القرن 11 هـ/17م، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية الرباط 9-33.



قبيلة الشراردة بمنطقة الغرب

تعتبر الشراردة من قبائل بني معقل،⁶ الذين كانوا يجوبون الصحراء، لكن الملاحظ أن هذه المجموعات لما حلت بجوز مراكش إبان قيام دولة السعديين، إلتحقت بها مجموعات إجتماعية أخرى؛ بفعل التحالفات الزواجية وضرورة ضمان المراعي والحقول الزراعية، ناهيك عن "حركة المخزن" التي كثيرا ما تتدخل في القبائل لتثبيتها في المجال أو نقلها إلى مجالات أخرى، ومنه ما وقع لقبيلة الشراردة بعد قضاء المخزن على زاوية الشراي في حوز مراكش سنة 1244 هـ.

خريطة رقم 1: التوزيع القبلي بمنطقة الغرب



المصدر : المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي للغرب القنيطرة بتصرف

هكذا؛ إجتمع فوق مجال الدراسة مجموعة من القبائل الصحراوية، التي هي في الأصل قبائل محاربة حملت إسم شراردة ، كما أنها مكونة من تكنة وأولاد دليم . ومنه؛ وحسب المعطيات المقدمة من المصالح المختصة، يتضح أن مجال جماعتي بئر الطالب وزكوة تستقر فوقه قبيلة شراردة ذات الأوصول المعقلية (قبائل بني معقل)، الذين كانوا يجوبون الصحراء، لكن الملاحظ أن هذه المجموعات لما حلت بجوز مراكش إبان قيام دولة السعديين احتكت بها مجموعات إجتماعية أخرى؛ بفعل التحالفات الزواجية وضرورة ضمان المراعي والحقول الزراعية، ناهيك عن

محمد دحمان الترحال (2006)، الاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مطبعة كوثر، الرباط ص 218⁶.



"حركة المخزن" التي كثيرا ما تدخل في القبائل لتثبيتها في المجال أو نقلها إلى مجالات أخرى، ومنه ما وقع لقبيلة الشاردة بعد قضاء المخزن على زاوية الشراي في حوز مراكش سنة 1244 هجرية.⁷

الخاتمة

يعكس المجال الترابي لجماعتي بير الطالب وزكوة دينامية تاريخية معقدة لتشكل البنيات القبلية بمنطقة الغرب، التي عرفت استقرارًا بشريًا متدرجًا تأثر بعدة إكراهات طبيعية، مثل الفيضانات، وبوامل سياسية واجتماعية مرتبطة بالصراعات القبلية. وقد تشكل هذا النسيج عبر تعاقب موجات استيطان لقبائل ذات أصول هلالية ومعقلية وصحراوية، من بينها رياح، الخلط، بني سفيان، بني مالك، بني أحسن والشراردة. وقد ساهمت التحولات السياسية وتدخلات المخزن وإعادة تنظيم المجال في إعادة تشكيل الخريطة القبلية للمنطقة، مما أدى إلى تدخلات مجالية واستقرار غير ثابت للقبائل عبر الزمن. كما ارتبطت هذه الدينامية بالصراع حول الموارد الطبيعية، خاصة الأراضي والمراعي، ما عزز من حركية التموقعات القبلية داخل المجال وبذلك، فإن المجال المحلي لجماعتي بير الطالب وزكوة يمثل فضاءً تاريخيًا لإعادة إنتاج البنيات الاجتماعية والقبلية، حيث تتقاطع فيه عوامل الاستقرار والحركة، مما يعكس خصوصية التنظيم المجالي بمنطقة الغرب.

محمد دحمان (2006)، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مطبعة كوثر، الرباط ص 221.⁷



البيبلوغرافيا

- ابن خلدون، عبد الرحمن. (2004). مقدمة ابن خلدون. بيروت: دار الفكر.
- البوعناني، المصطفى. (2002). مساهمة في تاريخ منطقة الغرب من القرن 6/12م إلى القرن 11/17م. أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.
- البوعناني، المصطفى. (2004). أزغار والغرب: "إشكالية التنمية وتحديد المجال". مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، العدد 4.
- دحمان، محمد. (2006). الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب. الرباط: مطبعة كوثر.
- دحمان، محمد. (2009). القبائل الصحراوية بمنطقة الغرب: دراسة سوسيو-تاريخية. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، العدد 9، ص ص. 215-224.
- الشيكرك، مبارك. (2000). المدن الصغرى والمتوسطة ودورها في الهيكلة المجالية. أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.
- Jean LE COZ (1964) Le Gharb fellahs et colons étude de géographie régionale 2 T Rabat.